شقّت الطائرة دروب الأفق السمائي فأمعنت النظر من الأعلى في دروب الأفق الأرضي (إن جاز لي التعبير) فوجدت الوطن جميلا بتنوع تضاريسه البحر والجبل والسّهل والصحراء ... لم أندم لأنني بدون القلم والمذكرة فعقلي استوعب الكثير من الأفكار التي يمكنني سكبها على الورق في يوم من الأيام طالما مازلت حيًا أرزق..

خالد أحمد القحوم

تبدأ "رسالة تحت الغداء" بمغادرة رُقيّة قريتها لتعانق رجلاها أرض المدينة، وكانت تمنّي نفسها مع زوجها بطل الرِّواية "يحيى" ليبنيان معاً جنتهما فوق الأرض, ولكن ينهار كل شيء بسبب عدم النضوج الفكري والسياسي المؤلم .. وقد كان هذا الألم شديداً على الزّميل خالد القحوم الذي أخرج لنا هذا الإنجاز الرِّوائي الذي سيرفد مكتبتنا السّرديّة بعمل روائي إبداعي جديد.

الأستاذ صالح سعيد باعامر

رسالة تحت الغداء

خالد أحمد القحوم

رسالة تحت الغداء

رواية

خالد أحمد القحوم

دار الأسماء للدراسات والنشر

رسالة تحت الغداء

رقم الإيداع بالهيئة العامة للكتاب م/ حضرموت (٣١٢) لعام ٢٠٢٣م

عنوان الكتاب: رسالة تحت الغداء (رواية).

المؤلف: خالد أحمد القحوم.

الحجم: ١٤ × ٢١ سم.

الإخراج الفني: قسم الإخراج بدار الأسعاء.

تصميم الغلاف: حُسام علي بامحسون.

الناشر

دار الأسعاء للدراسات والنشر

الشحر ـ حضرموت ـ اليمن؛ ت ـ وتس: ٠٠٩٦٧٧٣٨٤١٠٢٧١

الطبعة الأولى

١٤٤٥هـ – ٢٠٢٣م

حقوق الطبع محفوظة

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع والتصوير والنقل والترجمة والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي.

رواية

رسالة تحت الغداء

تأليف

خالد أحمد القحوم

الإهداء

إلى صديقي وزميلي **علي سالم اليزيدي** الإعلامي

الأديب الذي قدَّم لي الوفاء على طبق من نصح وإرشاد

تجاوز حدود الإبداع إلى مرافئ الإخاء الجميل . .

خالد

مقدِّمة

بقلم الأستاذ الرِّوائي/ صالح سعيد باعامر

رواية (رسالة تحت الغداء) للزميل خالد أحمد القحوم

أجـزم أنهـا انطلاقـة مهمَّـة فـي رحلتـه مـع الكتابـة السرديَّة الرِّوائية، فعشقه للصحافة التي فجرت نزوعه إلى السرد هي التي بذرت ميله إلى كتابـة الرِّوايـة، وقد عرفتـه كاتبـاً مسـرحياً ولـه كتابـات أيضـاً فـي القصـة القصـيرة، وكنت أحسبه يقيناً سيصل إلى كتابـة الرِّوايـة بحكم النزعـة الإبداعيَّـة لديـه .. وقـد لمسـت ذلـك مـن خـلال نقاشـاتي المتعدِّدة معـه وهجسـه الـدائب للتعـاطي السَّـردي الرِّوائـي الذي دائماً ما يغازل الكاتب ويبحث لـه عن منفذ للوصـول إليه سيما إذا كان هذا الكاتب هو الآخر يبحث له عن مـلاذ سـردي ينطلـق بـه إلـى المـأوى الـذي يجـد نفسـه فيـه، لـذلك

وجدت الرِّواية ضالتها في خالد القحوم ووجد خالد القحوم نفسه راكعاً لتعلو به.

فجاءت رواية "رسالة تحت الغداء" لتعالج ما اعترى مجتمعنا من شوائب علقت به جراء التحولات السياسيَّة الكبرى التي عصفت به وأدَّت إلى فقدان أفضل قادتنا ومناضلينا.

تبدأ "رسالة تحت الغداء" بمغادرة رُقيَّة قريتها لتعانق رجلاها أرض المدينة، وكانت تمنِّي نفسها مع زوجها بطل الرِّواية "يحيى" ليبنيان معاً جنتهما فوق الأرض، ولكن ينهار كل شيء بسبب عدم النضوج الفكري والسياسي المؤلم .. وقد كان هذا الألم شديداً على الزَّميل خالد القحوم الذي أخرج لنا هذا الإنجاز الرِّوائي الذي سيرفد مكتبنا السَّرديَّة بعمل روائي إبداعي جديد.

تمهيد

ذات يوم كنت مسافراً (تصوروا) أنني نسيت حقيبتي الشخصية التي أحمل فيها قلمي ومذكرتي الصغيرة ..

شقَّت الطائرة دروب الأفق السمائي فأمعنت النظر من الأعلى في دروب الأفق الأرضي (إن جاز لي التعبير) فوجدت الوطن جميلا بتنوع تضاريسه البحر والجبل والسهل والصحراء ... لم أندم لأنني بدون القلم والمذكرة فعقلي استوعب الكثير من الأفكار التي يمكنني سكبها على الورق في يوم من الأيام طالما مازلت حياً أرزق..

نحن ننعم بالتنوع المكاني الذي حبانا الله سبحانه وتعالى به ... ولكننا للأسف نضع حدودا فاصلة أمام التنوع الفكري .. معظمنا ... فهل مازلنا كذلك ..

خالد..

(١)

دوران القمر

عندما وضعت قدمها اليمني على حافة المركبة الصغيرة التي ستقلها من قريتها الصغيرة الوادعة في صباح يوم صيفي قائظ تعثرت تلك القدم وكادت تطيح بها وتضعها أرضاً عندها ظلَّت تحدق كثيراً ومليا في كل الاتجاهات والأرجاء التي يقع عليها بصرها ألقت نظرة الوداع الأخيرة للرقعة الجغرافية التي احتضنتها بكل ما فيها من مكونات طبيعية وإنسانية جعلتها تحس بدفق مشاعرها وارتفاع نبضها المتواصل معها منذ أن فتحت

عينيها على الحياة وتكحلت تانك العينان بالصور التي رصدتها وهي تشب ببراءة مثل كل صبايا القرية، وكانت تلك الصور لاتصل لدرجة الاكتمال الالتقاطي إلا عندما تكتمل كل أجزاء المساحة المتاحة لحجمها، فيتم تعليقها على جدار الزمن التاريخي للقرية بمغادرة الشخص لها لتبدأ مرحلة مهمة من مراحل حياته في إحدى المدن السكنية البعيدة المليئة بالصخب الإنساني المتواصل ليلاً ونهاراً، هذا الصخب الذي تفتقده الأجواء الحياتية لكل القرى الصغيرة، وعلى الرغم من دخول **رقية** إلى عالم الاكتمال الالتقاطي لصورتها الحياتية بحصولها على هذا الأمر وبالتالي فوزها وتحقيقها لهذا المجد الإنساني وانتقالها من القرية إلى المدينة الرئيسة إلا أن نظرتها إلى الأفق الممتد من كل اتجاهات قريتها وهي تودعها جعل قدمها تتعثر، ولكن **يحيى** الذي ظل يتابع خطاها باهتمام بالغ وهو يعايش إحساسها الطبيعي في موقف كهذا

استطاع أن يعيدها إلى توازنها ويضعها في مقعدها بعد أن ضغط على يدها ضغطة حميمية شديدة ذكرتها بتلك الضغطة الحميمية التي مارسها معها ليلة زفافهما التي جرت عندما ضغط على يدها بحنان، كانت ليلة رائعة عاشها أهالي القرية وفي المقدمة الصبايا التي ارتبطت **رقيــة** بصداقتهن، وكانت نظرات الفرح والابتهاج الممزوجة بالغبطة بادية من عيونهن لأن /**رقيـة**/ حالفها الحظ الجميل لتكون من نصيب هذا الرجل الشاب الوسيم المتعلم، وأي تعليم؟ تعليم عسكري يحمل الكثير من معاني النبل والاعتزاز، وتأتيه رفيقة تُكمل معه بقيَّة عمرها، ليس هذا فحسب بل تتجاوز هذا الأمل الحياتي السعيد لتنتقل معه ويأخذها، لا بل ينتشلها من ضيق ومحدودية الحياة في القرية إلى اتساع الحياة في المدينة بصخبها الإنساني المتواصل، أوه، أوه، ما أروعها من ضغطة وفي الوقت ذاته ما أجملها ضغطة أكدت بما لا يدع مجالاً

للشك حجم الحب الكبير الذي يختزنه هذا الرجل الأصيل لها، وعلى الرغم من كل هذا الشرف الذي نالته **رقية** إلا أن فراقها لهذه القرية التي عاشت فيها سني حياتها الأولى بعفويتها وبراءتها لم تستطع أن تحبس شيئاً من اعتمالات أحاسيسها وهي تفيض حباً جماً شعرت معه بحسرة جعلت الدموع تتدحرج من مآقيها، إلا أن حالة الحسرة تلك لم تدم سوى هنيهة فتلاشت مع نظرة حانية أرسلها إليها حبيب القلب الذي كان مستوعباً لبعد اللحظة المعاش ألقى بظلاله على العواطف الكامنة التي تحتفظ بها **رقية** للقرية وأهلها..، ولقد كان لتلك النظرة الزوجية الحانية أثر إيجابي دفع بكل تلكم الحسرة إلى خارج نفسها، كيف لا؟ وهي تؤمن إيماناً عميقاً بالحب الزوجي الكبير الذي يربطها بهذا الرجل الذي ستعيش بين أحضانه وفي كنفه معززة مكرمة ومحبوبة في الوقت ذاته، لحظئذ شقت المركبة الصغيرة طريقها بين السهول والوديان وهي

تحمل الزوجين المحبين بجسميهما وآمالها وأحلامهما في حياة سعيدة وهانئة.

في المدينة كانت **رقية** على موعد مع حياة أخرى، وكنتيجة طبيعية للبساطة التي كانت سمة بارزة من سمات حياتها في القرية بعفويتها وبراءتها استطاعت أن تندمج اندماجاً واقعياً مع بعض من نسوة الحي الذي حطت رحالها فيه، وكان لهذا الاندماج الواقعي أثر جيد على نفس زوجها **يحيى** الذي كان ناشطاً يعمل بجد وإخلاص وتفان، من خلال سعيه الدؤوب مع مجموعة من رفاق الدرب السياسي الذين كانوا يخططون في سبيل الوصول إلى الأهداف السياسية الثورية التي يعتقدون أنها صالحة للتهيئة الأرضية اللازمة والمطلوبة للوقوف بقوة وبصلابة أمام كل التحديات التي تقف حائلاً أمامهم وهم يمضون على درب هذا العمل الذي يتطلب المزيد من الجهد والوقت في ظل اختلاف الآراء وتعدد الأفكار وهذا

التعدد والاختلاف أنتج مناهج مختلفة أيضاً خلقت شيئاً أو بالأصح أشياء من (الحقد السياسي) بين مؤيدي هذا الرأي ومناصري هذا الفكر، فأصبح كل يتربص بالآخر، ويرى أن رأيه وفكره هو الأفضل والأصلح لتحقيق الأهداف الثورية المبتغاة وبالتالي الوصول بسفينة الثورة إلى بر الأمان السياسي المرجو.

من أجل ذلك كان الاندماج المعاش الواقعي الذي أحدثته **رقية** مصدر سعادة لـ **يحيى** حتى يجد شيئاً من التفرغ الزمني يجعله يؤدي دوره السياسي المطوب منه وكان الرجل يشعر بسعادة وهو يمارس هذا العمل بإيمان وبدافع من تلاحقات المد الثوري الذي كان سائداً في تلك الفترة الزمنية الماضية بل ومهيمناً على مفاصل الحياة التي اعتجنت بالسياسة ولا شيء غير السياسة.

وفي الوقت ذاته لم تشأ إرادة الله أن تعطي **يحيى ورقية** نعمة الأمومة والأبوة، فكان هناك فراغ اجتماعي

جثم على صدر أسرتهم الصغيرة فلم يجدا بداً من تغطية هذا الفراغ الاجتماعي إلا بالمزيد من الحب الزوجي الجميل.

في ظلال تلك الأجواء المشحونة بالمتناقضات بأفقيها الأساسيين، الأفق الأسري العاطفي الحميمي الجميل، والأفق الآخر السياسي النضالي الثوري، توالت الأيام بلياليها على الجميلين **يحيى ورقية**، ومع توالي تلكم الأيام بدأت تطفو على سطح حياتهما بعض من إفرازات الاحتدام السياسي الثوري الذي انغمس فيه هذا الرجل الجميل وترجم هذا الأمر في الغياب الفجائي الأول الذي دام ثلاثة أيام دون سابق إنذار أو علم، عاشت خلالها /**رقية**/ تلك الليلة الأولى حالة من الفراغ المعيشي العاطفي، مما جعلها تستنجد في صباح اليوم التالي بإحدى جاراتها القريبة إليها لتبات معها وتؤنس وحشتها وتبعد عنها شيئاً من الخوف الطبيعي الذي يلازم الإنسان في

مثل هكذا حالات التي يقضي فيها ليله وحيداً، وبعد مرور الثلاثة الأيام عاد الغائب، وعادت معه مباهج الوئام العاطفي إلى مجاريها، ولكنها كانت عودة مشوبة بالحذر والترقب القادم بعد أن أفضى **يحيى** بتلك الإشارات المتلاحقة الممزوجة بالدعابة وهي إشارات لطغيان الحس السياسي الثوري وليس الحس الرومانسي كل ذلك من أجل أن يهيئ لها المناخ اللازم لاستقبال صور الأحداث المرتقبة للأيام القادمة بالكثير من الصبر والحلم والأناة والتهوين.. ففي جلسة ودية حية على سطح منزلهما، وكان القمر يشاركهم تلك الجلسة وهو يرسل إليهما شيئاً من ضوئه الأبيض، قال لها..

- هذا القمر، يتحلى بالصبر وهو يمارس دورانه المتواصل، ليقدم لنا الكثير من الأشياء المفيدة، منها هذا الضوء الذي ينير حياتنا بالبهجة، فهل يمكننا أن نتحلى مثله بالصبر؟

أجابته بعفوية.

هناك بعيداً، في القرية يكون لهذا القمر دور أجمل وأبهى.

- لا يهم يا عزيزتي، فهذا القمر الذي يضيء المدينة هو القمر ذاته الذي يضيء القرية، ويشاهده بل ويستمتع بإضاءته الناس جميعاً في كل المدن والقرى لكنه في القرية أكثر بهجة وإضاءة.
- هذا صحيح، ولكنه يبدو هذه الليلة أكثر ضوءاً وبهجة.
- إذن أنت تستمتعين بهذه البهجة.
- نعم.. نعم.. استمتع، وتزداد هذه البهجة بوجودنا معاً.
- وجودنا معاً شيء جميل، ولكن هذا الجمال يمكنه أن يزداد أيضاً عندما نتجمل بالصبر.

- ماهي حكاية الصبر التي تتحدث عنها كثيراً هذا المساء؟
- الصبر من السلوكات الحياتية التي تعطينا القوة ونحن نمضي على دروب الحياة بمشاقها ومشكلاتها، حتى أن الله سبحانه وتعالى وضع الصبر في المقام الأول في الاستعانة على نوائب الدهر، فقال (واستعينوا بالصبر والصلاة).
- وماذا بعد؟
- لقد غبتُ عنك، ثلاثة أيام بلياليها، فهل تحليتي بالصبر؟
- أرجوك.. أرجوك.. أبعدنا عن هذا المنحى من الكلام، فتلك الأيام لا أريد أن أتذكرها.
- لا.. لا.. أنا أريدك، أن تتذكريها دوماً.
- تريدني أن اتذكرها دوماً.. لماذا؟
- لأنها ربما تتكرر في مستقبل الزمن.

- ولماذا ستتكرر هذه الأيام التي أحزنتني كثيراً.
- ليس مهماً أن تحزني، فالحزن محطات يمر بها الإنسان، ولكن المهم في الأمر أن تتجاوزي تلك المحطات بمزيد من الصبر.

وعلى الرغم من العفوية والبراءة التي كانت تظلِّل حياة، **رقية** إلا أنها أدركت ساعتئذ أن هذا الرجل الحبيب الزوج يريد أن يهدئ من روعها ويزرع في نفسها أشجاراً من قوة الصبر وصلابة الاحتمال لما قد تخبئه الأيام القادمات من غياب قد تتفاوت مدته وتختلف باختلاف تصاعد مقامات وتحركات النشاطات الثورية والنضالية التي تخوض غمارها أجنحة العمل السياسي المختلفة.. فقالت له بكل وضوح وشفافية.

- نعم.. من الطبيعي أن يمر الإنسان بمحطات الحزن، ومن الطبيعي أيضاً أن يتجاوز هذه

المحطـات إذا مـا تحلـى بالصـبر، ولكـن هـل معنـى كلامـك أن محطـات الحـزن سـتتوالي فـي حياتنـا، وبالتالي....

لحظئتذ قاطعها.. عندما شعر بأن الإشـارات التـي أراد إرسـالها لهـا إليهـا قـد لا تـأتي أكلهـا فـي التمهيد للحادثـات القادمـات، كمـا أنـه لا يريـد أيضـاً إفسـاد حالـة الاسـتمتاع العـاطفي الجميـل فـي تلـك الليلة المضيئة.. فقال لها:

- لكـل شـيء فـي الحيـاة وجهـان متضـادان، فـالحزن يتبعـه فـرح، واليـأس يدفعـه أمـل، والتشـاؤم يدفعـه التفاؤل، وعتمة الليل يدفعها إشراق النهـار، وشـيء جميل ورائـع أن ينتظـر الإنسـان النهـار بعـد الليـل، لعل ذلك النهار يحمل معـه الفرح والأمل والتفـاؤل والإشراق، لذلك دعينا يا عزيزتي نأمل.. ونأمل.

(٢)

عناق الإيهام

لم يدر بخلد أبي أنه سيلتقيه في تلك الليلة الديسمبرية الباردة كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة، فجميع أفراد العائلة خلصوا إلى الراحة النهائية في ذلك اليوم وتهيأوا للسبات، وكما هو معلوم فإن الساعة العاشرة مساءً في تلكم الأيام من بداية سبعينيات القرن العشرين المنصرم كانت تمثل ساعة متأخرة من ساعات اليوم عموماً، وقد حبسه عن الذهاب إلى السبات ذلك الكتاب الذي يحمل عنوان طريق السعادة، وهو عنوان مُلفت وفي

الوقت ذاته مثير وجميل يقدم إضاءات سلوكية رائعة تشير إلى أمرين مهمين أولهما إن المرء يصنع مصيره ويكتب مستقبله بيده، وآخرهما إن لكل امرئ من الصحة والنجاح ما هو أهل له بإرادته وعلمه.. ولكي نصل إلى مبتغانا السعيد فأنه يجب علينا أن نربي إرادتنا ونقويها، من خلال اهتمامنا بالتفاؤل الذي يولد فينا الثقة بالنفس ويتجه بأنظارنا إلى الجانب البهيج من الحياة.

ففي تلك الساعة من تلك الليلة الديسمبرية الباردة، قطعت خلوة أبي مع السعادة وطريقها تلكم الطرقات الخفيفة المتلاحقة التي كانت تعانق برفق وتوأدة الأجزاء العلوية من البوابة الخشبية لمنزلنا، وقد نهض من مقعده مسرعاً في حالة انتباه ممزوجة بالدهشة والاستغراب فالوقت لم يكن مناسباً للزيارة الاعتيادية أو زيارة المجاملة للسؤال عن الأحوال وتقصي الأخبار الإنسانية العابرة للمعارف والجيران، فمن يكون يا ترى الطارق في مثل

هذا الوقت؟، نظر من الثقب الأسفل للمكان المخصص لمعرفة القادم عموماً، ذلك المكان الذي يطلق عليه عادة /**المشرف**/ إذ تم إطلاق هذه التسمية من المهمة التي يؤديها وهي الاستشراف، فوقعت عينا أبي على هامة ذلك الرجل المنقبة دائماً، **يحيى كريم**.

في تلك اللحظة تعالت وتعاظمت في نفسه حالة الدهشة والاستغراب التي انتابته عند سماعه للطرقات الخفيفة المتلاحقة، وكان مصدر ذلك التعاظم الاستغرابي هو وجود هذا الرجل لزيارتنا في ذلك اليوم بعد أن افتقدناه عنوة وغاب عنا قسراً إذ تم إيداعه السجن قبل يومين فقط، فقال في نفسه متسائلاً:

هل من المعقول أن يجد هذا الرجل سبيلاً للخروج من خلف القصبان بهذه السرعة التي لم نعهدها في مثل حالته التي سجن على أساسها بوصفها حالة سياسية تتداخل فيها الكثير من المعطيات التي يكون التعقيد

مرتكزاً رئيساً لها في ظل التداعيات والأحداث المتلاحقة التي نشأت بصورة طبيعية لتلك الثورة السياسية التي كانت تأكل رجالها كما تأكل القطة أبناءها أيضاً، فكانت المسارات المرسومة من قِبَلِ أولئك الرجال مختلفة، وهذا أمر طبيعي حتى في الأمزجة الإنسانية العادية التي يكون منبعها اجتماعياً فما بالكم بمسارات سياسية يغلب عليها القوة والاعتداد بالنفس المقترن بالتشبث بالرأي والتأكيد عليه والسعي الدؤوب في اتجاه إلغاء الآراء الأخرى والذهاب إلى أبعد من ذلك بكثير ليصل الأمر إلى حد عدم الثقة واتهام المعارضين المخالفين بالارتباط الوثيق بالأعداء الذين يتربصون بهذه الثورة الدوائر ويحيكون المؤامرات والدسائس الرامية إلى إجهاضها والقضاء عليها في مهدها.

وبعد أن أيقن أبي أن الزائر الطارق هو الرجل.. نعم الرجل **يحيى** شدَّ الغلق إيذاناً بفتح البوابة، وخرج

مهرولاً مبتهجاً باستقباله، ودخل معه في حالة عناق جميل وهادئ كحالة العناق الجميل والهادئ الذي كان طرقاته تتلاحق على الأجزاء العلوية من بوابة المنزل.. ومن غير شعور بادره بالسؤال عن سبب الإفراج السريع من السجن هذه المرة، وعلى الرغم من قسوة هذا الأمر إذ كيف للإنسان أن يتجاوز السؤال الطبيعي عن الصحة والحال قبل أن يضع السؤال الآخر، ولكن عزاءه الوحيد لهذا التجاوز هو حالة الفرح باللقاء السعيد التي غمرته حالتئذ وهي حالة شعور طبيعية تتملك أحاسيسك وأنت تشاهد بأم عينيك رجلاً أُفْرِجَ عنه في حالات صراع سياسية متوالية، وما أدراك ما الحالات السياسية التي يكون الداخل إليها مفقود والخارج منها مولود كما يقولون..

صحبه أبي إلى غرفة الاستقبال في الطابق العلوي مردداً الكثير من عبارات الترحيب المعهودة في مثل هذه الحالات . وازدادت تلكم العبارات ابتهاجاً وطرباً بعد أن

سرت العدوى إلى خلجات نفسه التواقة إلى معرفة المزيد من أخباره وأحواله إذ كان ذلك السريان الابتهاجي ينبع من حالة التفاؤل والسعادة التي كانت تشع من عينيه، وهذا يعني أن هذا الرجل خرج من السجن شام الأنف كما يقال بعكس المرات السابقات التي كان التشاؤم والحزن الممزوجين بالألم يتطايران أيضاً من عينيه على الرغم من اعتماده كثيراً على وضع النظارات الشمسية السوداء على عينيه الواسعتين والجميلتين في الوقت ذاته.

إلا أن ذلك الحزن ظل باقياً في تينك العينين مع كل حالة من حالات الصراع السياسي التي كان الرفاق يعيشونها بل ويعشقونها أيضاً.. إذن كان هذا الرجل يعيش لحظات تفاؤل وسعادة وهذا التفاؤل يجعل صاحبه يرى كل شيء جميلاً وبالتالي ينسجم مع من حوله وما حوله كما يردد علماء النفس وهذا يعني أن هناك وفاقاً ساد أو سيسود بين الرفاق الذين يسعون إلى بناء وطن جديد

تتحقق على ربوعه الأهداف السامية التي ناضلوا من أجلها وتمكنوا من خلال تضحياتهم المختلفة إلى نجاح تلكم الثورة والتخلص من المستعمر الغاشم الذي جثم على صدر الوطن أعواماً عديدة. من أجل ذلك انتهز أبي الفرصة مستغلاً حالة التفاؤل والسعادة التي تشع من عيني الولد الصديق **يحيى** ليفتح معه باب الحوار الرامي إلى استجلاء الكثير من مكنونات الفعل الإنساني الذي تسلح به وهو يمضي بوفاء وإخلاص من أجل هذا الوطن الذي نحبه جميعاً ونسعى لأن يكون رائعاً وجميلاً كبقية الأوطان الناشئة التي ترنوا إلى مستقبل أجمل، وتذكر عندئذ تلكم المقولة التي تشير إلى أن أكثر الأعمال إنتاجاً هو العمل الذي يخرج من دماغ ويدي رجل يفيض قلبه بالبهجة والسرور وحب الناس.. نعم، فهذا /**يحيى**/ في تلك الساعة كان قلبه يفيض بالبهجة والسرور قال له..

- يا **يحيى** الحمد لله على سلامتكم.. ومرحباً بكم.. ولكن ما هو السر الكامن وراء حالة العنفوان الابتهاجي الذي يشع من عينيكم؟

- يا عم /**سعيد**/ لمسنا الكثير من البوادر الإنسانية الطيبة التي أبداها الرفاق تجاهنا ونحن نعيش حالة السجن..

- أنتم سجناء رأي ومن الطبيعي أن تكون البوادر الإنسانية الطيبة قاسماً مشتركاً مع بعضكم بعضاً بوصفكم رفاق درب نضالي واحد، ولكن تفرقت بكم السبل وهذا أمر طبيعي.

- نعم.. نحن رفاق درب نضالي واحد، وتفرقت بنا السبل أيضاً.. وهذا يكون حاصلاً في العديد من الوقائع والأحداث التي يعيشها البشر بل ويكون أمراً طبيعياً كما قلت.. ولكنه ليس أمراً طبيعياً في الوقائع والأحداث ذات المنحى السياسي.

- يا **يحيى** السياسة يجب أن تساعدنا على التغيير الإيجابي لحياتنا، وأن تجمعنا لا أن تفرقنا هذا من الناحية النظرية، أما الناحية العملية المعاشة فيبدوا أن ذلك في عداد المستحيل.

- ولماذا يكون هذا الأمر في عداد المستحيل؟

- لأن النزعة التسلطية تجعل البعض منا يتشبث بآرائه ويسعى جاهداً من أجل فرض تلك الآراء مستغلاً شيئاً من القوة المادية والمعنوية أيضاً التي يمتلكها، وهذه النزعة تحيد به عن طريق التغيير الإيجابي، وبالتالي فهو ينظر إلى المخالفين له نظرة عدائية لا تجمع بل تفرق.

حتى لا نبتعد كثيراً دعني استوضح منك مرة أخرى ماهية البوادر الإنسانية التي لمستموها هذه المرة خلف قضبان السجن.

- باختصار يا عم **سعيد** لقد كنا هذه المرة نعانق أشياء من حقوقنا الإنسانية المعترف بها فكانت كرامتنا

مصـانة ولـم تنتهـك حرماتنـا لا ماديـاً ولا نفسـياً، وهـذا مـا جعلنا نطمئن على مستقبل ثورتنا، ونطمئن أيضـاً إلـى أمر مهـم وهـو أن رفاقنـا الآخـرين اسـتوعبوا الـدرس أو علـى الأقـل بـدأوا يسـيرون فـي الطريـق السـليم للاسـتيعاب المأمول.

- ولكـن يـا **يحيـى** معـانقتكم لأشـياء مـن حقـوقكم الإنسـانية المعتـرف بهـا فـي هـذه الحـالات لا يعـد مؤشـراً حقيقياً لاستيعاب الدرس من قبل الرفاق الآخرين.

- يجب أن نحسن الظن، ونتفاءل.

- يـا بُنـي فـي السياسـة يطغـى اليقـين علـى حُسـن الظـن.. علـى اعتبـار أن لعبـة المصـالح تفعـل فعلهـا الـذي يتجلـى فـي بـروز النظريـة الميكيافيليـة التـي تشـير إلـى أن الغاية تبرر الوسيلة.

- أحسب أنكم ترمون إلى شيء معين يا عم **سعيد؟!**

- نعم- لربما يكون هذا التعامل الخاص الذي عوملتم به، ولمستم من خلاله تلكم البوادر الإنسانية الطيبة كما تقولون يخفي وراءه أشياء وأشياء غير إنسانية على المدى القريب قبل البعيد، فهذه سياسة.. سياسة يا بني، ليس لها أمان، وأنصحك بأن تأخذ حذرك، ولا تفرط في التفاؤل، فأنت شاب في مقتبل العمر، والثورة صارت كما يقال مثل القطة عندما تجوع تأكل أبناءها.

- لا.. لا.. لا.. يا عم/**سعيد**/ فنحن نؤمن إيماناً عميقاً بنضالنا في سبيل الوصول إلى الأهداف السامية التي نرنوا جميعاً إلى تحقيقها، وبالتالي لا يمكننا التراجع عنها أما تركها فهذا من الأمور المستحيلة.

- يا بني لعله من المفيد أن أذكركم بأنكم تمتلكون حظوظاً طيبة أفضل من غيركم من الرفاق التابعين لجناحكم السياسي. هذه الحظوظ الطيبة ستبتعد بكم عن مزالق العمل السياسي، وتأخذكم إلى الزوايا الآمنة،

لتواصلوا مسيرة حياتكم بعيداً عن السياسة و/**بلاويها**/ إن جاز لي التعبير.

- لعلكم تقصدون انتقالي إلى المهجر لأكون قريباً من أهلي الموجودين هناك، والتحق بوظيفة ومهنة مدنية.

- نعم.. نعم.. هذا ما قصدته أيها الرجل الجميل.

- اسمح لي يا عم سعيد أن أخالفكم الرأي والفكرة في الوقت ذاته، لقد كان لي هدف حياتي يجب أن أمضي على دروبه، لقد آليت على نفسي أن لا أتراجع عنه وهو العمل في السلك العسكري الأمني الذي أعشقه منذ كنت صغيراً وهو من الأحلام الحياتية التي تمنيت أن أحلم بها، وقد تجسد هذا الأمر عندما سنحت لي الفرصة بمواصلة دراستي العليا في هذا المجال الذي أعشقه كما أسلفت القول، فأصبح الحلم حقيقة.

فأرجوك، أرجوك دعني.. أواصل حلمي وأخدم وطني كما أريد.

- اتمنى لكم أحلاماً سعيدة، ولكن السياسة لا تعترف بالأحلام بل تعترف بالوقائع.. كما أتمنى أن تكون هذه هي المرة الأخيرة التي تعايشون فيها مرارة السجون وأن يكون الرفاق فعلاً قد استوعبوا الدرس أو على الأقل بدأوا يسيرون في الطريق السليم للاستيعاب المأمول.

عندئذ.. لم يستطع هذا الرجل **يحيى** أن يواصل حواره مع أبي، ولست أدري هل أفحمه في الكلام، أم أنه لم يقتنع بالفكرة التي صارحه بها في تلكم الليلة الديسمبرية الباردة، فظل ينظر إليه بنظرات ملؤها التقدير والاعتزاز لشخصه المتواضع، ولم تمض أيام معدودات حتى فاجأتنا زوجته وشريكة حياته /**رقية**/ بالخبر غير المتوقع، عندما جاءت باكية، قائلة:

- لقد أعادوا **يحيى** إلى السجن..

وخرج أبي باستنتاج طبيعي وهو أن **يحيى** كان مخطئاً في تقديراته، وأن الرفاق لم يستوعبوا الدرس بعد.

(٣)

الأنيق المجنون

عاد / **يحيى**/ إلى السجن وهو أمر اعتيادي على صفحات كتاب حياته ولكنه قضى ليلته الأولى بصورة استثنائية وليست ككل الليالي الأولى أو الاستهلالية لمرات إيداعه في السجن التوقيفي السياسي الذي اعتاد عليه، ففي تلكم الليلة داهمه شعور مؤلم رافقه انقباض وجداني جعله يعيش حالة من التوهان الفكري فظل واقفاً يجول بناظريه في الأفق البعيد ويتأمل من الشرفة الوسطى للغرفة الموقوف حالة السواد التي اكتست بها هذه الليلة في

وجدانه طبعاً وهي حالة أفرزها تأثير ما يدور في عقله الباطن من وهن وتعب وهو يستعيد شريط تسجيل ذاكرته التي لم تزل تحتفظ بالحوار الأخير الذي دار بينه وبين أبي حول أهمية استيعاب الدروس السياسية التي تقدمها تجربة النضال بين رفقاء الثورة، وبعد أن فاق من حالة التوهان الفكري تلك تذكر أنه بإمكانه الجلوس على أرضية الغرفة ومواصلة تأمله لأن نوافذ الغرفة تفتح كاملة بجزأيها العلوي والسلفي فابتسم في البداية ثم اتسعت ابتسامته بل وواصلت اتساعها إلى أن تحولت إلى قهقهات ضاحكة ترددت أصداؤها في أرجاء الغرفة وفي هذه اللحظة ازداد ألمه ألماً وتمنى أن يشاركه أحد هذا الألم ويتقاسم معه هذه القهقهات التي كان الألم مصدراً رئيساً لها.

ولم ينم / **يحيى**/ ليلتها وظل الأرق رفيقاً له إلى أن جاء الصباح فأخذ غفوة إجبارية بعد حالة الانهاك التي

حلت به وعندئذ وجد -**عمر الراسي**- وهو أحد زملائه من الضباط المكلفين بحراسته يوقظه ومن تلكم الغفوة السريعة والتجهم والغضب بادٍ على ملامح وجهه:

- يا /**يحيى**/ يا عزيزي قم ... قم... قم... أرجوك.

- يا أخي بل أنا الذي أرجوك واتركني أكمل نومي.

- أي نوم هذا الذي تتحدث عنه ألم تعلم بما حدث؟

- لا يهمني أن أعلم بأي حدث، أرجوك قلت لك أتركني أكمل نومي، فأنت الذي لا تعلم بأنني نمت مع تباشير صباح اليوم.

- حتى وإن قلت لك أن الحدث الذي أود إخبارك به هو وفاة رفيق دربك /**عبدالوهاب الصالح**/

لم يكد /**يحيى**/ يسمع اسم /**عبدالوهاب الصالح**/ حتى نهض واعتدل جالساً وتطاير النوم من عينيه ولم ينبس ببنت شفة وألقى نظرة معمّقة على وجه زميله /**عمر الراسي**/ ثم عاد مرة أخرى مضطجعاً وكأنه أراد أن

يواصل نومه بل وقام بوضع الغطاء القماشي على كل أجزاء جسمه في حالة غريبة ومريبة في الوقت ذاته في نظر زميله /**الراسي**/ الذي بادره بالسؤال:

- يا /**يحيى**/ ماذا جرى لك أقول لك /**عبدالوهاب الصالح**/ مات.. وأنت تعود للنوم مرة أخرى.. وكأن هذا الأمر لا يعني لك شيئاً.. ألا ترى أن تصرفك هذا غريب جداً؟

- يا /**عمر**/ أرجوك.. أرجوك.. دعني أكمل نومي.

- لن أدعك تكمل نومك أبداً.. ماذا جرى لك يا أخي هل تبلّدت مشاعرك إلى هذه الدرجة؟

- لا.. لا لم تتبلد مشاعري، ولكني في هذا الوقت أريد أن أكمل نومي.

- لاحول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

- فعلاً.. لاحول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

- طيب- دعني أسألك.. هل أنت سعيد لدرجة أنك تريد العودة إلى النوم ورفيق دربك وصديقك قد مات وغادر هذه الحياة.

- طبعاً.. لستُ سعيداً لأن رفيق دربي /**عبدالوهاب الصالح**/ غادر هذه الحياة، ولكن ماذا تريدني أن أعمل حالياً وأنا حبيس هذه الغرفة اللعينة ولا استطيع مغادرتها.

- تمام.. (بس) على الأقل أن تظهر شيئاً من الألم والحسرة والحزن على رفيق دربك.

- وما الفائدة من إظهار الألم والحزن.

- عجيب أمرك يا /**يحيى**/؟

- بل العجيب أن نتألم ونحزن على وفاة رفيقي /**عبدالوهاب**/ وأنت تعلم الحالة التي كان عليها خلال السنة الماضية من عمره الذي كانت مغمورة بالألم والحزن الفعليين.

- صدقت يا زميلي / **يحيى**/ فقد كانت حالته تصعب على الكافر مثلما يقال بعد أن وصل به إلى الجنون الذي أصبح من خلاله يجوب الشوارع من غير هدى وبصورة تبعث على الرثاء.

- إذن دعني أعود لأكمل نومي.

عاد /**يحيى**/ ليضطجع ولكنه في هذه اللحظة أبعد الغطاء القماشي عن جسمه.. وما أن وضع رأسه على المخدة حتى انفجر باكياً بصوت مسموع فانسابت الدموع على وجنتيه لتتلقفها تلك المخدة التي كانت شاهدة على أول حالة بكاء لـ /**يحيى**/ عندئذ سرت عدوى حالة البكاء إلى /**عمر الراسي**/ الذي بكى بصمت مغادراً غرفة الحبس الإجباري التي كانت تحتضن زميله /**يحيى**/.

لقد بكى /**يحيى**/ وبكى معه أيضاً /**عمر الراسي**/ وكان بكاؤهما بطعم المرارة لأن /**عبدالوهاب الصالح**/ يستحق البكاء، وبعد أن أفرغ /**يحيى**/ كل الشجن الحزين

الذي تملكه إثر وفاة رفيقه /**عبدالوهاب**/ استرجع ثم حمد الله كثيراً متذكراً هذا الرجل الرفيق الصالح وهو صالح اسم على مسمى كما يُقال ولكنها الأقدار الإلهية التي رُسمت على جبينه وهو يمضي في سبيل الحياة مكافحاً من أجل المبادئ والقيم الجميلة التي آمن بها منذ أن كان طفلاً صغيراً وقد جمعت /**يحيى بعبدالوهاب الصالح**/ صداقة مرحلة التعليم الجامعي خارج الوطن وكان /**عبدالوهاب**/ خلالها زهرة من زهرات شباب الوطن الطامحين لنيل الشهادة الدراسية والعودة إلى أرض الوطن للإسهام في بناء مستقبلي يستند إلى أركان العدالة والسلام الاجتماعي كان /**عبدالوهاب**/ جميلاً في مظهره أنيقاً في شكله متفوقاً في علمه ودراسته والأهم من هذا كله إنه كان معتداً بنفسه واثقاً من قدراته من أجل ذلك كان صلباً في مواقفه التي دافع عنها في كثير من الأحداث السياسية التي كان شاهداً عليها وخاض غمارها عندما عاد إلى الوطن

وكان من الطبيعي أن يتبوأ منصباً سياسياً إدارياً وطنياً شعر من خلاله بالفخر والاعتزاز بل لقد شعر أيضاً بسعادة واسعة ليس حباً في ذلك المنصب السياسي الإداري بل لأنه كان يعتقد اعتقاداً جازماً أنه من خلال وجوده في هذا المنصب الوطني سيكون من السهل عليه تنفيذ الأفكار والمعتقدات التي كان يؤمن بها وترجمتها إلى واقع حياتي ملموس من أجل التغيير المجتمعي المنشود من وجهة نظره فواصل اهتمامه بأناقته وجمال مظهره المتناسق مع جمال فكره ولم يكن يدري أنه سيأتي اليوم الذي يظهر فيه بشكل مغاير تماماً لشكل الأناقة والجمال وأنه سيرتدي الثياب الرثة التي سيمزقها بيده التي كانت تخط بأناملها شيئاً من استراتيجيات النهوض الوطني المأمول.

وقد جمعت الصديقين /**يحيى**/ و**عبدالوهاب الصالح** آمال حياتية خلال مرحلة الدراسة الجامعية على الرغم

من اختلافها علماً **فيحيى** طبعاً كان منخرطاً في الدراسة العسكرية الأمنية وعبدالوهاب كان منخرطاً في الدراسة الأدبية وقد تواصلت حبال ارتباطهما عندما عادا إلى أرض الوطن وازدادت تلكم الحبال متانة وهما يحملان الأفكار المتقاربة من أجل حب الوطن.

وتمضي الأيام وتدور ومع دورانها يتواصل الارتقاء الوظيفي المهني **لعبدالوهاب الصالح** فقد وجد نفسه محاطاً بمجموعة من الرجال أنصاف المتعلمين /**إن جاز لي التعبير**/ الذين لاهم إلا الحديث عن الحديد والنار فقط ولا شيء غير الحديد والنار من أجل الوصول بالوطن إلى بر التقدم والازدهار من وجهة نظرهم فقط أما من يخالفهم فإن له الحديد والنار حتى وإن أوصله ذلك إلى أي مكان مؤلم كالسجن والجنون والقبر وهذا الثلاثي المؤلم ذاق وبالها المناضل /**عبدالوهاب**/ الذي كان عنيداً وسعيداً في الوقت ذاته وهو يؤدي دوره في مجال البناء

فتكالب الرفاق عليه وتقديراً لأدواره الوطنية الصادقة زُجَّ به في السجن بعد اجتماع شهد مناقشات حامية الوطيس كما يقال وقف خلال هذا الاجتماع المناضل الإنسان الواعي /**عبدالوهاب**/ سداً منيعاً بأفكاره التي تم تصنيفها بالأفكار الرجعية الرامية إلى العودة بالوطن إلى مهاوي الردة والإذلال باتجاه الارتماء في أحضان جهات ودول لا تريد العزة للوطن الناهض والخارج لتوه من أسوار الاستعمار الذي جعل الوطن يعيش في ظلام حياتي شامل على حد تعبيرهم يومئذ قال لهم /**عبدالوهاب**/:-

(يا رفاق الدَّرب نحن دولة ناشئة والصعوبات تحيط بنا من كل الجوانب والتركة ثقيلة بل وثقيلة جداً ولا نستطيع بل لا يمكننا حملها ونحن مسؤولون عن وطن وعن شعب يعيش في هذا الوطن.. هذا الشعب وضع على رقابنا وعواتقنا مسؤولية القيام بواجبنا تجاهه، نعم يجب علينا أن نتمسك بمبادئنا الثورية التي ناضلنا جميعاً من

أجلها ولكن يجب علينا في الوقت ذاته أن نوائم ونوازن بين تحقيق تلكم المبادئ والسبل الكفيلة بالوصول إليها مع الأخذ بعين الاعتبار مأخذ الجد والاهتمام بالتفكير الجدي في الطرق والدروب السليمة للوصول السليم أيضاً إلى تحقيق أهدافنا الوطنية أياً كانت هذه الطرق والدروب).

لحظتئذ تناقل الرفاق المجتمعون وتبادلوا نظرات الدهشة والاستغراب لأنهم لا يؤمنون أو بالأصح لا يفكرون إلاّ في المضي على درب واحد ولا شيء غيره وهو الدرب الأحمر، فطلبوا منه إيضاح ما يفكر فيه وماذا يعني بتعدد الطرق والدروب للوصول إلى الأهداف الوطنية المبتغاة.

فواصل /**عبدالوهاب الصالح**/ حديثه..

(شوفوا يا رفاق.. نحن الآن ماضون على درب وحيد.. ومستندون إلى عمود واحد.. وناظرون إلى اتجاه وحيد.. وهذا المضي.. وهذا الاستناد وهذه النظرة سوف

تجعلنا نقع أسرى لدى أصحاب هذا الدرب وذلك العمود وتلك النظرة وبالتالي فإننا سنظل مقيدين بسلاسل هذا النهج الوحيد وسنقع تحت رحمتهم فهل فهمتهم مقصدي؟).

انبرى أحد الرفاق بعد أن بدت على ملامح وجهه علامات الزعل والامتعاض قائلاً:

- اسمع يا /**عبدالوهاب الصالح**/ نحن أصحاب مبادئ ونحن ثوار ونحن مناضلون، وأصحاب المبادئ لا يلفون ولا يدورون.. وقد طلبنا منك الإيضاح.. ولكنك واصلت اللف والدوران. وباختصار يا رفيقنا.... (هات من الآخر) وأفصح، فليس هناك داعٍ لهذا الكلام المطاط.

فقال الثاني:

- نعم يا رفيق /**عبدالوهاب**/ ليس هناك داعٍ لمثل هذا الكلام المطاط و.....

ولم يجعله الثالث يكمل كلامه فقال:

- يا رفيق /**عبدالوهاب**/ نحن نعرفك حق المعرفة فأنت رجل بدأت تظهر منك ملامح التململ.. ومرة أخرى نقول لك.. هات من الآخر وأفصح عما تريد بوضوح.

- يا إخوتي.

- نحن رفاقك.. ورفاق دربك النضالي الثوري.

- يا رفاق دربي النضالي والثوري أقول لكم بكل وضوح ومن الآخر كما يُقال، لماذا لا ننفتح على كل الاتجاهات الخارجية الدولية في الكيانات السياسية المختلفة ونسعى لتحقيق مصالحنا ومصالح شعبنا معهم ومن خلالهم وبإيضاح أكثر أرى أن ننتهج سياسة خارجية متوازنة مع كل الاتجاهات الخارجية الإقليمية والعربية والدولية ومن أراد منهم أن يساعدنا فمرحباً به بهدف الخروج من المأزق الاقتصادي الذي يعاني من ويلاته شعبنا (المسكين).

- يعني تريد منا أن نتراجع عن نهجنا الثوري ومبادئنا النضالية ونرتمي في أحضان الامبريالية يا /**عبدالوهاب**/.

- يا إخوتي ويا رفاق دربي..

- انتهى الموضوع وبسم الثورة ننهي اجتماعنا هذا.

انفض ذلك الاجتماع الثوري المصيري بالنسبة **لعبدالوهاب الصالح**.. ولم يكن هذا الاجتماع مصيرياً فحسب بل كان في الوقت ذاته اجتماعاً أخيراً غادر من بعده بوابة هذه الاجتماعات التي كانت تعقد بشكل مستمر ولم يتم استدعاؤه إليها مطلقاً، وفي البدء لم يعط هذا الأمر أي اهتمام وأعدها فرصة للاستراحة واستعاده أنفاسه التي ظلت لاهثة خلال السنتين الماضيتين من عُمر نضاله الثوري ولم يدر بخلده أن رفاق الدرب السياسي يتدارسون بصمت وبعمق وباستفاضة السُبل الهادفة إلى كيفية التعاطي والتعامل مع الأفكار الهدّامة التي كان يحملها من وجهة نظرهم وبعد نقاشات مطولة وجادة وحادة في

الوقت ذاته خلص أولئك الرفاق إلى سبيل يمكنهم من خلاله كف الأذى السياسي المنحرف لرفيقهم /**عبدالوهاب**/ فقد كان ذلك السبيل هو إيداعه السجن حتى يحتفظ بأفكاره الهدامة المتراجعة عن النهج الثوري الأحادي مع اتخاذ قرار منع الزيارة تأكيداً لعدم انتشار ذلك الفكر الامبريالي العفن.. وقد ترجم هذا القرار فعلياً في تلكم الليلة التي انتصف وقتها عندما توالت الطرقات على بوابة منزله ليجد نفسه وحيداً مكسور الوجدان تضمه زنزانة انفرادية في أحد السجون السياسية.

وهناك ذاق صنوفاً من التعذيب الجسدي والنفسي حاول احتماله وتقبله في البداية ولكنه مع مرور الأيام لم يستطع احتمال هذا الأذى فساءت حالته الصحية ودخل في حالة هستيرية وغيبوبة فاق بعدها ليجد نفسه طريحاً للفراش على أحد الأسرة في مستشفى الأمراض النفسية والعصبية وكان الصمت المطبق رفيقه الدائم لحالته

الصحية فتم إخراجه من المستشفى وظل لأشهر حبيس غرفته في منزله وهو يواصل صمته المريب إلى أن انفجر مرة في حالة هستيرية أخرى مغادراً غرفته بل ومنزله إلى الشوارع التي ظل يجوبها ولم يزل صامتاً إلى أن وافاه الأجل وهو صامت.

(٤)

الفنان المهاجر

قبل أن يبدأ الليل في إرخاء سدوله وفي لحظة حياتية فارقة كان الضابط /**عمر الراسي**/ على موعدٍ مع هروب شكَّل علامة فارقة في حياته.

وقد كان توقيت هذا الهروب عجيباً في النظرة الإنسانية الاعتيادية إذ أن الهروب الطبيعي يكون في ظلمة الليل الحالكة ولكن الرسالة التحذيرية التي وصلت إليه من رجل آخر من رفاق الدرب السياسي اتصفت بشدة

القـول وأشـارت إلـى ضـرورة الإسـراع وإلاَّ فـإن المـلأ يـأتمرون بـه ليأخـذوه وليصـبح ضـحية جديـدة مـن ضـحايا الانغلاق الثوري والسياسي.

تسـلَّم /**عمـر الراسـي**/ هـذه الرسـالة التحذيريـة وبـالطبع أخـذها علـى محمـل الجـد مسـتغلاً كـل دقيقـة مـن دقائق بقائه الزمني ليضع عدداً من أصدقائه المقربين إليه جداً في صورة الحدث الذي أوقعه القدر فيه بعد أن دخل تفكيره في دائرة واسعة من التوهان والحيرة.

كـان لابـد مـن أولئـك الرجـال الأصـدقاء أن يقومـوا بـواجبهم تجـاه صـديقهم مـن خـلال رسـم خطـة (تهريبيـة) يكـون الإحكـام منهجـاً لهـا تبـدأ عمليـة تنفيـذها بعـد غـروب شمس ذلك اليوم مع إخفائه في أحد المنـازل الموجودة فـي قلب المدينة وإبقائه في هذا المنزل لمدة أسبوع ثم تمريره فـي الخفـاء أيضـاً إلـى العاصـمة عـدن.. وقـد تكللـت هـذه

العمليـة (التهريبيـة) بالنجـاح فـي ظـل القبضـة الحديديـة الأمنيـة المعروفـة آنـذاك ولكـن أحـد الرفـاق الخصـوم أسـر للضـابط /**عمـر الراسـي**/ بـأنهم كـانوا فـي حالـة متابعـة مستمرة له في كل الخطوات التي خطاها في سبل التنفيذ المحكم لحظة الهروب، وقد تعاملوا مع هذا الأمر بالكثير من الحكمة والرؤية، فقد كان هدفهم الأول والأخير من التخطيط لاعتقاله هو إبعاده عن المعتقل السجين الموقوف الأول /**يحيى**/ فقد كانوا يعتقدون أنهم ارتكبوا خطأ فادحاً عنـدما كلفـوا الضـابط /**عمـر الراسـي**/ بالإشـراف علـى حراسة زميلهم /**يحيى**/ والوقوف على شئونه اليومية وهذا الأمر جعلهما يرتبطان بعلاقة كان الود والتقدير علامة بارزة لها فقد كان /**عمر**/ يقوم بزيارة / **يحيى**/ مرتين يومياً صباحاً ومساءً وكان الأخير أي **يحيى** يجد في هذه الزيارات المتكررة الكثير من المتعة الإنسانية الفكرية لأن /**عمـر الراسـي**/ إنسان مبدع وفنان موهوب فهو شاعر

ورسام وخطاط وفوق هذا كله إداري من نوع خاص ويتمتع بحضور إنساني جميل من أجل ذلك خاف الرفاق من علاقة التأثير المتبادل التي توقعوا بروزها إلى حيز الوجود العسكري والسياسي فتم تدارس هذا الأمر من جميع اتجاهاته وكانت خلاصة هذه الدراسة ونتيجتها أن هناك إمكانية واسعة لسريان الأفكار التنظيمية السياسية التي يختزها /**يحيى**/ إلى زميله والمشرف على سجنه التوقيفي /**عمر الراسي**/ وبوصف الأخير مبدعاً فلربما وظَّف هذا الإبداع الشعري والفني التشكيلي إلى الناس جميعاً فيكون للإبداع دوره وتأثيره السلبي في النكوص بالأهداف الثورية وإعادتها إلى مراحل رجعية ثم تجاوزها بالدم والعرق والكفاح المجيد.

وصل /**عمر الراسي**/ إلى عدن وهناك قدم أوراق اعتماده إلى أحد الزملاء من الرفاق العسكريين السابقين

وقد حملت سطور تلكم الأوراق الكثير من عبارات الأسى والألم المقترن بالخوف من المجهول إذا ما عاد إلى مسقط رأسه لأن الرفاق هناك متربصون ومتأهبون للإجهاز عليه والزج به في غياهب المجهول، فحاول هذا الزميل الرفيق امتصاص الشيء الكثير من ذلك الألم والخوف وأكرم وفادته وقدم له اقتراحاً على طبق الوفاء وهو أن يفر بجلده ويغادر الوطن فكان السبيل إلى تنفيذ هذا الاقتراح هو تمارض /**عمر الراسي**/ وبالتالي القيام باستخراج تقرير طبي يؤكد ضرورة تلقيه العلاج في الخارج.

وبهكذا طريقة يستطيع مغادرة الوطن بسلاسة ويسر وبتوفيق من الله نجح هذا الاقتراح وبعد أسبوعين كان /**الراسي**/ العسكري الأديب الشاعر والفنان التشكيلي والخطاط صاعداً سلالم إحدى الطائرات المغادرة من

مطار عدن في خور مكسر في التوقيت ذاته الذي غادر فيه مدينة المكلا عندما كانت الشمس تذهب نحو الاصفرار وهي تودع يوماً من أيام الله وهو بصحة جسدية ممتازة والحمد لله ولكن صحته النفسية بعيدة عن الامتياز وهو يعيش حالة الانكسار الإنساني في وطن كان منكسراً أيضاً على الرغم من كل الأعمال المهنية العسكرية والإبداعية الشعرية والفنية التشكيلية التي أداها في سبيل هذا الوطن فقد كان شاعراً ثورياً كتب للثورة الكثير من القصائد المغناة التي تمجد هذه الثورة وتستنهض الهمم وترنوا إلى غدٍ أجمل وأسعد، وقضى في اغترابه عن الوطن قرابة ثماني سنوات كان خلالها يحترق شوقاً على الدوام ويتمنى العودة إلى أحضان الأهل والأحباب الذين قاسموه هذا ألم الابتعاد وفاضت أشواقهم إليه بل وازداد احتراق هذه الأشواق وقد أصبح الاغتراب مكامن الإبداع الشعري للسياسي العسكري /**عمر الراسي**/ فواصل

إبداعه الكتابي الشعري فسطر أجمل القصائد التي وجدت طريقها إلى العديد من الفنانين المطربين فتغنوا بها وقدموها لجماهير الفن والغناء فعلى الرغم من أنه عاش حالة الانكسار الإنساني إلا أن قلمه الإبداعي لم ينكسر بفعل إرادته الصلبة ونظرته الإيجابية للحياة بشكل عام.

وبعد ثماني سنوات وعندما هدأت رياح السياسة الاختلافية بين الرفاق عاد إلى أرض الوطن وظل يمارس هواية المشي راجلاً يجوب شوارع المدينة بعد أن بقيت في نفسه الطيبة أشياء من دخان احتراق أشواقه وكنت أشاهده في كثير من جولاته الراجلة والابتسامة ترتسم على شفتيه ولكنها ابتسامة تختزن أشياء من الألم الذي لايزال يعيش بداخله وهو ألم طبيعي لسنوات الاغتراب التي احتملها قسراً.

(٥)

قُبلة على الرأس

اعترف لكم أنني كنت قاسياً في ذلك اليوم.. إذ لم أقم بتنفيذ تلك المهمة اليومية التي تحمل في طياتها بعداً إنسانياً جميلاً، عندما كانت فكرة الأبعاد الإنسانية تقفز من فوق رأسي فلا تستطيع غرف ذاكرتي استيعابها خلال تلكم السنوات الماضيات من طفولتي التي كان اللعب واللهو البريء يمثل هاجساً قوياً ونحن نمضي على درب الحياة البسيطة من غير وسائل اللعب الحديثة التي تكاثرت فأصبح عددها ليمونياً كما يقال.. فقد حالت إحدى الألعاب

الجديدة آنذاك وهي الأرجوحة التي نمتطيها وتتألف من حصانين يتولى تحريكها بيديه الهزيلتين ذلك الرجل العجوز في يوم ما أنستنا هذه اللعبة نحن صبية المنطقة كل شيء في سبيل الاستمتاع بهذه الأرجوحة وحتى لا يفوتنا مثل هذا الفعل الذي ظل حديث الشارع الطفولي، حالت دون حضوري في الوقت المناسب.

نعم.. لقد كنت قاسياً على صديقي العزيزين **يحيى ورقية** على الرغم من فارق العمر بيني وبينهما بوصفي طفلاً صغيراً تمر من فوق رأسه فكرة الأبعاد الإنسانية الجميلة وكانت مهمتي التي كنت أقوم بها برضا وعن طيب خاطر يصل إلى درجة الفرح في أحايين كثيرة، وتتمثل تلك المهمة في إيصال الغداء إلى /**يحيى كريم**/ القابع في سجنه الإيقافي داخل المعسكر بعد أن تقوم بإعداده شريكة حياته وزوجته /**رقية**/.

فـي ذلـك اليـوم الـذي لعبـت فيـه ولهـوت علـى الأرجوحة، كانت النتيجـة أننـي تـأخرت بعض الوقت عن الحضـور فـي موعدي المعتـاد إلـى **رقيـة** لأخذ الغداء إلـى قرة عينها **يحيى**، استقبلتني بابتسـامة باهتـة تزخـر بـالكثير من إرهاصات العتاب الذي يتفجر من المكونـات الانفعاليـة لتأخري، وكانت الأشواق تمـلأ عينيهـا الواسعتين، لحظتهـا انتابتني حالة من الخجل وشعرت بالتقصير ولكنـي لـم أكـن أدرك أن الأشـواق عنـدما تمـلأ العيـون لا يستطيع الإنسـان مداراتها وإخفاءها هذا من جهة، ومن جهة أخرى تسـاءلت **/وهذا التساؤل/** بالطبع جاء متأخراً بعد الكثيـر مـن السنين التي انقضت، إذ كيف للإنسـان الـذي يعيش حالـة الإرسـال أن يكون مشتاقاً بل وتبلغ درجـة الاشـتياق عنده مداها؟ ثم إذا كانـت هـذه الحالـة يعيشـها المرسـل فكيـف الحـال بالمستقبل الـذي ينتظـر رسـائل الأشـواق القادمـة مـن تحـت الغداء؟

وبعد أن غمرني الخجل والتقصير أخذت الأوعية المتراصة فوق بعضها بعضاً وطويت درجات السلم طياً وسابقت الريح كما يقال كل ذلك من أجل إثبات حسن النية، ولكنني في الوقت ذاته استرقت النظر إلى عيني **رقية** التي رمقتني في تلك اللحظة بنظرة شكر بعد أن أحست بشعور التقصير الذي انتابني.

واصلت مسيري السريع لأصل إلى البوابة الرئيسة للمعسكر فاستقبلني الحارس بوجه حازم ومتجهم، وهو يؤدي واجبه المعهود في مثل هذه الحالات فقام بالتفتيش الروتيني على الأوعية المتراصة التي تحمل أصنافاً مختلفة من الطعام وما أن تفقد الوعاء السفلي الأخير حتى انفرجت اساريره واستبدل الحزم والتجهم بابتسامة عريضة عندما وقعت عيناه على تلكم الورقة البيضاء الملفوفة بعناية فائقة أشار لي بالدخول، فكان علي قطع المسافة الواقعة بين البوابة ومكان السجن الإيقافي على

الجهة الأخرى من المعسكر بعد المرور في طريق تغمره شمس الظهيرة اللاهبة تلك المسافة الواقعة بين بوابة المعسكر ومكان سجن صديقي **يحيى** تضم ساحة مكانية كانت لي معها بعد عدة سنوات أحداث عايشتها خلال أيام المد الثوري، فهذه الساحة كانت تستخدم مهبطاً للطائرات العمودية /**الهليوكبتر**/ التي كانت تقل رؤساء الجمهورية السابقين عندما كانوا يزورون محافظة حضرموت لتفقد أحوالها المعيشية وأوضاعها العامة وكان الناس على اختلاف أعمارهم ومشاربهم يتداعون كلما تراءت لهم بوادر وإرهاصات التحليق الأولي لتلك الطائرات وهي تطوف في سماء الحي لتتهيأ للهبوط فيسرعون الخطى في فرح طفولي بريء فيلتصقون بالسياج الحديدي الذي يحيط بالمعسكر لكي يشاهدوا عن كثب ما تلفظه تلك الطائرات من البشر وكانت تلك الطائرات العمودية تثير غباراً كثيفاً تغطي جزءاً كبيراً وواسعاً من المنطقة المحيطة بالمعسكر

لأن الأرضية لم تكن مرصوفة رصفاً إسمنتياً وليس مهماً ما سيحدثه هذا الغبار الكثيف من مخاطر صحية لكل الحاضرين المتداعين لكن المهم هو حضور هذه المشاهد، ومن تلكم المشاهد كما أسلفت الزيارات الرئاسية وكان مجموعة كبيرة من الحاضرين المشاهدين بعد أن تهدأ الطائرة وتوقف محركاتها يتوجهون عند بوابة المعسكر فيتراصون على جانبي الطريق للترحيب بالشخصيات الزائرة وإعطاء صورة جميلة من صور الترحيب والانشراح بهذه الزيارة وحق الضيافة ولازالت ذاكرتي تختزن صورة الرئيسين المجري **/بالوشنسي/** و**/الاثيوبي/ منجستوهيلا مريام/** ومعهما الرئيس الأسبق **/سالم ربيع علي/** الذي رافقهما إلى زيارة محافظة حضرموت في إطار زياراتهم الودية لجمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية، وسط تصفيق جماهيري قوي

ومتواصل من أبناء الحي الذي كانت سعادتهم غامرة بهذه الزيارات.

وعلى الرغم من ذلك التصفيق الحار والسعادة إلا أن هناك من كانت الصورة السعيدة مغايرة تماماً وكان له رجال الأمن بالمرصاد في ذلك اليوم الابتهاجي وهو العم /**عمر العطيوي**/، في حكاية طريفة ومعبرة في الوقت ذاته يرويها أهل الحي وهي أن طفلين تشاجرا على علم ورقي صغير لجمهورية أثيوبيا الاتحادية وقد تناثرت في أرجاء المدينة مجموعة كبيرة من تلكم الأعلام بمناسبة زيارة الرئيس /**منجستو**/ وقد تطور تشاجر هذين الطفلين واختلافهما من أجل اقتناء هذا العلم إلى عراك حامي الوطيس، وكان العم /**عمر العطيوي**/ ماراً بالقرب منهما بالصدفة، فأراد أن يحل هذا التشاجر وفك العراك، فقام بأخذ العلم ومزقه لتقسيمه إلى قسمين وأعطى كل واحد منهما قسماً من ذلك العلم، واستطاع بهذا الفعل الإصلاحي

إنهاء هذا العراك، وفي هذه اللحظة الزمنية الفارقة رصدت العيون الأمنية /**العطيوي**/ وهو يمارس هذا (الفعل الشنيع)، ليستدعى في وقت لاحق من ذلك اليوم ويتم التحقيق معه بتهمة الإساءة إلى دولة صديقة وتمزيق علمها، ولكن تدخل أهل الخير الذين أكدوا بياض قلب هذا الرجل وشعبيته الجارفة بين الأهالي وهذا البياض وهذه الشعبية كان لهما الأثر الأكيد في إخراجه من هذا المأزق الذي كان أن يطيح به في غياهب أمور لا تحمد عقباها.

كما ما زالت ذاكرتي تختزن مشهد خروج الرئيس /**سالم ربيع**/ ماشياً على الأقدام مع مرافقيه في مفاجأة زادت من حدة التصفيق الجماهير عندما قطع المسافة ماشياً كما أسلفت إلى الفندق الرئيسي الذي يتم النزول فيه وهو الفندق الوحيد المؤمم في ذلك الوقت ويسمى فندق الشعب وهو يقع على مقربة وعلى بعد حوالي مائتي متر من هذا المعسكر.

وعلى الرغم من تلك المشاهد الترحيبية المبهجة التي عايشناها ترحيباً وفرحاً بما تحمله هذه الطائرات إلا أن هناك كانت بعض المشاهد المغايرة إذ كانت هذه الطائرات تحمل في بعض الأحيان حالات إنسانية فيها من الحزن الشيء الكثير لأفراد مصابين فارقوا الحياة في حوادث مدنية أو عسكرية يتطلب معالجتها سريعاً أو.....؟

أيضاً هذه الساحة المكانية شهدت كذلك الكثير من الاحتفالات التي كانت تقيمها إدارة أمن المحافظة ابتهاجاً بالمناسبات الوطنية لثورتي ٢٦ سبتمبر و١٤ أكتوبر وذكرى الاستقلال المجيد في ٣٠ نوفمبر وكذلك المناسبة الشرطوية المهمَّة وهي ذكرى يوم الشرطة الذي يصادف ٢٠ يونيو من كل عام وهو اليوم الذي استولى فيه ثوار الجبهة القومية على مدينة كريتر في عام ١٩٦٧م، ومما يثير العجب والاستغراب أن توجه الدعوة للجميع لحضور

هذه الاحتفالات التي تقام مساء وداخل ساحة المعسكر، نعم داخل المعسكر ويتقاطر الناس من كل حدب وصوب في المدينة ويدخلون المعسكر ويبتهجون ويفرحون ويستمتعون بالفقرات الفنية الغنائية والمسرحية التي تؤديها في الغالب الفرقة الفنية والموسيقية والمسرحية التابعة للشرطة الشعبية التي كانت تضم مجموعة الفنانين والشعراء والملحنين والعازفين والمطربين والممثلين، ويتوزع الحاضرون من أولئك الناس المبتهجين بهذه المناسبات في هذه الساحة وحول المسرح الذي يعد خصيصاً بهذه المناسبات وهم يبتهجون ويفرحون ويستمتعون وعن طريق الإرهاب يبتعدون، أيضاً هذه الساحة ذكرتني خلال وقت لاحق بعدد من الحالات التي قطعناها مشياً على الأقدام خلال أوقات مختلفة وأحياناً تكون في أيام العطل والإجازات الرسمية لتلقي العلاج من حالات الإصابة التي كانت تلحق بنا ونحن نمارس لعبة

كرة القدم أو بعض الألعاب الأخرى التي تتطلب شيئاً من الشقاوة الطفولية وكذلك الحالة التي أخذنا فيها أختي الصغيرة التي شُجَّ رأسها عصراً فتلقت العلاج من ذلك المساعد الطبي الشرطوي المبتسم الذي لاطفها كثيراً بحنان أبوي وأشار إلينا بالعودة إلى المعسكر لمواصلة ذلك العلاج بعد أن صرف لنا الدواء المناسب.

صحوت من ذكرياتي، وقلت في نفسي لابأس من أن أتحمَّل تلك القسوة الشمسية التي لا تقل لهباً واشتعالاً من لهيب الأشواق واشتعالها في تلك الرسالة التي أحملها لصديقي /**يحيى**/ الزوج الجميل الذي ينتظرني بصبر نافد وعلى أحر من الجمر، كنت أنوي أن أقدم اعتذاري له عن تأخري في المجيء إليه ولكن بادرني باحتضان أبوي جميل وأضاف مع هذا الاحتضان قبلة أجمل طبعها على رأسي الصغير الذي كانت شعيراته القليلة تعتجن بقطرات العرق وهي تغطيه كنتيجة طبيعية لحالة الاستعجال التي

اعتمدتها بهدف الوفاء للصديقين **يحيى ورقية**: قلت في نفسي متسائلاً: لماذا قبلني هذه المرة دون غيرها من المرات السابقة التي توليت فيها مهمة إيصال الغداء الممزوج بالأشواق الحارة؟ ولكنني استدركت حينها، فربما يعود سبب تقبيله لي إلى تأخري عنه ووصولي إليه.. في تلك الحالة ألقى التعب بظلاله عليَّ فتناول أوعية الغذاء وبدأ بالإمساك بالوعاء السفلي فتراقص الفرح في عينيه قبل شفتيه واطمأنت نفسه وهو يقلب بين يديه تلك (الرِّسالة) الورقة البيضاء التي نظر إليها سريعاً فازداد تراقص الفرح عينيه ثم وضعها في الكيس الصغير للجهة اليسرى من قميصه الأبيض الذي كان يرتديه في أحايين كثيرة كنت أشاهده فيها.. وفي أثناء قراءته للرسالة كنت اتفحص بفضول طفولي بريء الغرفة التي تقدر مساحتها بثمانية أمتار مربعة تقريباً وهي مستطيلة وتأوى صديقي /**يحيى**/ في سجنه الإيقافي، وأول ما لفت انتباهي التجريد

الـذي يخـيم عليهـا بوصـفها كانـت خاليـة مـن أي شـيء باسـتثناء قطعـة القمـاش الصـوفية الغليظـة، التـي تحتضـنه عنـدما يخلـد إلـى النـوم والمروحـة التـي ازداد بياضـها نصوعاً وهي تستقر عند منتصف السقف المطلي باللون المائـل للسـواد، أمـا أرضـيتها فكانـت مـن فـرش وتظهـر الطبقة الإسمنتية المطلية باللون الأبيض، وتنتشر الغرفة مجموعة من الشبابيك ذات اللون الأسود، وتطل ثلاث من تلـك الشـبابيك علـى ذلـك الجبـل الموشـي بـاللون المائـل للسواد، وكـان صـديقي **يحيى** كثيراً مـا تلتقطـه عينـاه وهو يرسـل نظراتـه التأمليـة مـن الشـباك القـابع عنـد منتصـف الغرفة فيعطيه شيئاً من الثقة والجلد والقوة، لقد كـان هذا الرجـل يعـيش بـين هـذين اللـونين المتميـزين الأبـيض والأسـود، فمـاذا كـان يـدور فـي رأسـه مـن لـون تفكيـري مستقبلي، يدفعـه إلـى التسـاؤل هل هو مائل إلـى السواد أم إلى البياض؟

طلب مني أن أشاركه في تناول الطعام، وهنا أيضاً قفز تساءل آخر في رأسي يقابل التساؤل الأول مضموناً ويختلف معه شكلاً: لماذا يطلب مني أن أشاركه تناول الطعام هذه المرة دون غيرها من المرات السابقة التي توليت فيها مهمة إيصاله إليه؟ ولكنني هذه المرة لم أدرك لأن لعابي بدأ يسيل وبدأت شهيتي تفتح أبوابها فقد بلغ جوعي مداه بعد اللعب والجري واللهث في ذلك اليوم منذ صباحه الباكر. الغريب في الأمر أن صديقي **يحيى** وعلى الرغم من شعور السعادة التي يملأ جوانحه إلا أنه كان مقلاً في أكله فبعد أن تناول لقيمات معدودات تنحى جانباً وظل ينظر إلي يراقب انكبابي في تناول الطعام بنهم، وبعد أن أشبعت جوعي وفرغت من تناول الطعام، التفت إلى صديقي /**محمد**/ فوجدت نظراته لم تزل تلاحقني وهو متوسد أحد جدران الغرفة المتاخم لشباكها الغربي عندئذ تفحصت قسمات وجهه وكأني أراه لأول مرة.

قلت له، بعد أن أنهيت تفحصي لقسمات وجهه.

لماذا أنت هنا؟

.....

وإلى متى ستظل في هذا المكان؟

.....

وهل لديك أصدقاء يزورونك هنا؟

.....

وماهي الأعمال التي تقوم بها هنا؟

.....

هل تخاف، عندما يأتي المساء وهل وتنام وحيداً هنا؟

.....

ماهي الأفكار التي تدور في رأسك هنا؟

.....

هل كنت تتوقع أن يزج بك يوماً هنا؟

.....

لماذا لم تأت /**رقية**/ لتزورك، لتؤنس وحشتك هنا؟

.....

أنت رجل طيب فلم يُقبض عليك؟

.....

أوه.. نسيت.. أنت أيضاً رجل قوي، فهل تبكي هنا؟

- يا صديقي الصغير.. عندما تكبر ستجد إجابات عن كل تلك الأسئلة ولكنني أتمنى وأرجو أن لا تكون يوماً هنا.

- يا **يحيى** يا صديقي الكبير.. لماذا قبَّلتني على رأسي، ولماذا دعوتني لأشاركك تناول الطعام هذه المرة بالذات هنا؟

- قبَّلتك.. ودعوتك للطعام لربما تكون هذه هي المرة الأخيرة التي ألقاك فيها هنا.

ظلت هذه العبارة ترن في مسمعي، وهي تعني أنني لن أقوم بهذه المهمة المحببة لدي وهي إيصال الطعام

إلى صديقي **يحيى** في سجنه الإيقافي بهذا المعسكر، لقد كانت المهمة محببة لدي لأنني كنت أحس إحساساً عميقاً بنبل هذه المهمة وأهمية هذا الدور الإنساني الذي اضطلع به ولست أدري هل هذا الأمر كان نبوغاً طفولياً مبكراً أم إحساساً عفوياً تملكني آنذاك. المهم أنني ودعت صديقي **يحيى** وأنا في حالة انقباض وتوجهت إلى منزله وهناك استقبلتني **رقية** فأعدت لها أوعية الطعام الذي حملته إلى /**يحيى**/، فتناولت مني تلك الأوعية وأمطرتني بعدد من الأسئلة بغية الاطمئنان على صحة زوجها **يحيى** وحالته النفسية التي يمر بها، ولأول مرة آثرت الصمت ولم أجب عن أسئلتها بل حتى لم أنظر إلى وجهها، فأشارت إلي بالانتظار لتعطيني هديتي المعهودة في مثل هذه الحالة ولكني تركتها تدخل إحدى غرف المنزل وخرجت مسرعاً إلى الخارج وأغلقت البوابة دون شعور وبصوت مسموع

فقد كانت عبارة **(لربما تكون هذه هي المرة الأخيرة التي ألقاك فيها)**، ترن في مسمعي.

رجعت إلى منزلي، فقالت لي أمي متسائلة:

- لماذا تأخرت؟ لقد تناولنا طعام الغداء، فهل تريد أن أقدم لك غداءك؟ أحبتها: بأنني تناولت طعام الغداء مع صديقي **/يحيى/** ولا حاجة لي لأي طعام..

في عصر ذلك اليوم ذهبت إلى الجد **/حسن/** وكعادتي كلما حز بي أمر ذهبت إلى هذا الرَّجل السبعيني، فهو جارنا الذي نرتبط معه بعلاقة طيبة تجاوزت حدود الجوار، وتأكيداً لهذه العلاقة الجوارية العميقة كنت في بعض الأحوال أسهم مع آل بيته في الإعداد والتجهيز لهذه الجلسة المسائية بالصعود إلى سطح المنزل حاملاً بعض الاحتياجات اللازمة من الفرش والمساند ولابأس من حمل الراديو مع التنبيه على أهمية الاعتناء به والصعود بهدوء للحفاظ على هذا الجهاز المهم في حياته.

وكان يجلس في مكان معين ومحدد على سطح منزله في إحدى الزوايا التي يسكنها شيئاً من الظل وكانت هناك ثلاثة أشياء يحرص على وجودها إلى جانبه (لزوم الجلسة) كما يقال وهي الإرجيلة وقارورة الشاي الأحمر والمذياع الكبير الذي يتم تثبيت مؤشره على ذبذبات إذاعة لندن.

كنت في كثير من الأحيان أتأمله وهو يعيش حالات من التسلطن وهو يدخن الإرجيلة ويقوم بتدوير قبعة رأسه في إشارة واضحة إلى استمتاعه بالتدخين، ولابأس من مزج هذا التسلطن مع شيء من التجهم أو الاستغراب على الرغم من عدم معرفتي بأبعاد ذلك التجهم ولكنه كان من باب المسايرة له مع يقيني بأنه يشعر بسعادة لوجودي إلى جانبه سواء إن تجهمت معه أم لم اتجهم، ولكنني كنت فعلاً متهجماً وحزيناً في ذلك اليوم وقد تملكتني حالة من الصمت لم يعهدها مني الجد /**حسن**/

فما كان منه إلا أن سألني مستفسراً عن سبب هذا الصمت، فرويت له ما جرى لي مع صديقي /**يحيى**/ فاستمع لي ولم ينبس ببنت شفه، ولم استطع تبيان أهداف هذا الصمت ولكنني أدركت هذا الأمر بعد سنوات وربطت النصيحة التي قدمها أبي لـ /**يحيى**/ بالابتعاد عن طريق العمل السياسي، إذ يبدو أن الجد /**حسن**/ كان قد قدم تلك النصيحة أيضاً ولكن دون جدوى.

(٦)

الأحلام لا تكون دائماً وردية

تظل الأحلام هاجساً إنسانياً طبيعياً عندما يمضي بنا قطار العمر.. لقد ظلم حلم /**يحيى**/ بأن يكون له وطن تصان فيه الكرامة وتظلله الحرية وتشرق على آفاقه شموس العدل، وهو حلم يمتد إلى فضاء وطني واسع، ففي كثير من الأحيان يقفز الإنسان بأحلامه أو بالأصح يقفز مع أحلامه بعيداً ليسعى إلى تحقيق تلكم الأحلام بالوصول إلى الأفق البعيد من أهدافه الكبرى في الحياة، ومن ثم

يعود إدراجه ليصل إلى الأفق القريب ويكون الوصول إلى أهدافه الصغرى في الحياة أمراً طبيعياً ومحققاً.

كان صديقي /**يحيى**/ يحلم بالوصول إلى الأفق البعيد ولكني لن أنسى الصورة المغايرة لأحد أصدقائي الآخرين ويدعى /**سالم المدشلي**/ الذي ظل يحلم أيضاً بالوصول إلى أهدافه في الحياة عبر الأفق القريب وبذل كل ما في وسعه ولكن الأقدار لم تسعفه ولم تساعده على اكتمال أحلامه فلم تكن تلكم الأحلام وردية بعد أن عاد جثة هامدة من تلك الدولة البعيدة الباردة التي قضي فيها نحبه وظلت قصته ولاتزال تعيش في خلدي كلما جالت في خاطري صورة الرسالة الأخيرة التي تسلمتها عبر البريد وبعثها لي من تلك الدولة الباردة التي سافر إليها على جناح الآمال الإنسانية ليحقق شيئاً من أهدافه الحياتية ويحلم بأحلام تمنى أن تكون وردية ولكنها لم تكن كذلك.

لقد ظلت قصة هذا الصديق تعيش في خلدي لأنني أشعر بعقدة الذنب بعد أن أهملت تلك الرسالة ولم أقم بالرد عليها لأكثر من ثلاثة أشهر ولكن عزائي الوحيد أنني كنت مهملاً ومسوفاً في الرد بدون قصد لانشغالي بالدراسة في السنة الأخيرة لإنهاء المرحلة الثانوية واعترف أنني لم استطع المشي خلف جنازته بعد شعوري بالتقصير تجاهه وهو تقصير غير مقصود.

وعود على بدء كان صديقي /**سالم المدشلي**/ هذا يحلم بأن يضع بصمته على ورقة حياته ليكون له شأن بعد أن قست عليه ظروف الحياة وكبتته وحرمته، كان يرى في نفسه أشياء وأشياء من القدرات البشرية وكان يتمنى أن يواصل دراسته الجامعية المنتظمة ليصل إلى أحلامه التي وئدت منذ طفولته بعد أن أبعده أبوه عن مقاعد الدراسة نظراً للظروف الاجتماعية المعيشية الصعبة التي كانت تعانيها أسرته.. فعندما وصل /**سالم**/ إلى نهاية

المرحلة الإعدادية قال له أبوه: إلى هنا ويكفي **/يا سالم/** ويجب أن تقف دراستك عند هذا الحد ولنبحث عن وظيفة تأمن لنا من خلالها شيئاً من ضرورات الحياة وتساعدني على تحمل الأعباء لأسرتنا الفقيرة.

في إحدى الليالي انفردت بصديقي **/سالم/** فحكى لي قصة وأد حلمه وإقصائه عن مواصلة دراسته الجامعية، وعلى الرغم من حالة الإحباط التي سيطرت على كلماته وهي تخرج من فيه منكسرة إلا أنه أفضى لي أنه لن يستسلم وسوف يواصل العزم في سبيل الوصول إلى أهدافه في الحياة، استمعت إليه بإنصات وكنت بهذا الاستماع كالطبيب المعالج في العيادة النفسية الذي يستمع لشكوى مريضه بطريقة عالم النفس **/فرويد/** فجعلته يسترسل في سرد قصته التي بدأها منذ اليوم (الإحباطي) الأول كما أفاد بذلك قائلاً:

(كان ذلك اليوم لا ينسى من أيام حياتي من منتصف السنة الثالثة الأخيرة من المرحلة الإعدادية عندما صارحني أبي بضرورة الاكتفاء بنهاية هذه المرحلة الدراسية.. حاولت إقناعه قدر استطاعتي بأهمية مواصلة دراستي، ولكن أصر على موقفه معللاً ذلك بالظروف المعيشية الصعبة التي تعيشها الأسرة.

مرت الأيام وأديت امتحانات نهاية السنة الدراسية الثالثة وحققت نتيجة جيدة، وكنت غير مبال بهذه النتيجة ولم أعرها أي اهتمام طالما أن لن تحقق مطلبي في الانتقال والالتحاق بالمرحلة الدراسية التالية (المرحلة الثانوية) وحُرمت من فرحة النجاح مثل غيري من أقراني الطلاب الذين كانت سُبل مواصلة دراستهم القادمة تلوح في أفق حياتهم القادم.

بعد ذلك التحقت بالسلك العسكري جندياً، كما أشار لي أبي على اعتبار أن الالتحاق بالعمل العسكري أكثر

سهولة من الالتحاق بالعمل المدني الذي يتطلب إجراءات أخرى ربما تأخر عملية الإسراع في التحاق بـ (سوق العمل) وعلى الرغم من أن ذلك اليوم الذي التحقت فيه بالسلك العسكري قسرياً إلا أنني آليتُ على نفسي أن ابدأ مرحلة جديدة من مراحل التحدي مع نفسي وظروفي الصعبة بهدف تجاوز هذه الظروف والانطلاق إلى تحقيق أحلامي، فاخترت العمل في مجال الاتصالات فقد كنت امتلك حظاً علميًّا بسيطاً واستطيع الكتابة بموهبة الخط الجميل الواضح، بعد ذلك انخرطت أو انضويت إلى اتحاد الشباب على اعتبار أن المنضوين في هذا الإطار الجماهيري هم أحسن حظاً في الحصول على بعض الامتيازات المهنية والعملية أكثر من غيرهم من الشباب الآخرين الذين لا يروق لهم العمل الجماهيري وكثفت نشاطاتي داخل هذا الإطار لأحتل موقعاً في قيادية اللجنة التي تدير هذا النشاط، وبعد أن تكيفت مع وضعي العملي

الوظيفي العسكري قررت العودة إلى مقاعد الدراسة لمواصلة دراستي للمرحلة الثانوية فطرقت هذا الباب عن طريق الدراسة المسائية المنتظمة ما يسمى بالانتساب وتحققت لي ما أريد ونجحت بتقدير جيد وانتزعت شهادة الثانوية العامة وكان هذا الأمر إنجازاً كبيراً في حياتي إذ بدأت تلوح أمامي فرصة حلمي الجميل لأجلس على مقاعد الدراسة الجامعية، فاحتفظت بهذه الشهادة الدراسية في إدراج قلبي قبل أن احتفظ بها في إدراج مكتبي، ثم حصلت على دورة داخلية لتطوير القدرات الإدارية الشبابية في العاصمة عدن وكما تعلم هأنذا أعود إدراجي بعد نجاحي في هذه الدورة، والأمل يغمرني في أن أحظى بمنحة دراسية جامعية استطيع من خلالها تحقيق حلمي ومواصلة دراستي العليا، وسأقوم بتعبئة الاستمارات المعدة لهذا العرض وتقديمها بعد أن أعطاني المسؤولون

وعداً بالاهتمام بطلبي هذا والاستفادة من إمكاناتي المهنية في العمل مستقبلاً).

هكذا أنهى صديقي /**سالم**/ حكايته الموسومة بالإصرار والتحدي على تحقيق حلمه العلمي في الحياة، كانت الفرحة تشعُّ من عينيه الصغيرتين والسعادة تملأ قسمات وجهه الأسمر، ثم نهض مسرعاً إلى بوفيه المقهى الذي ضمتنا إحدى طاولاته العتيقة ليحضر لنا كوبين من الشاي بالحليب.. بينما اتجهت أنا إلى دكان العم /**صالح**/ لأشتري شيئاً من المكسرات لزوم استكمال الجلسة كما يقال وافترقنا بعد انتهاء الجلسة.

وسافر / **سالم**/ وبدلاً من أن يعود حاملاً شهادته الدراسية الجامعية، عاد جثة هامدة محمولاً على الأكتاف. فجالت بخاطري هذه الحكاية عندما نظرت باستحياء إلى جنازته وقلت نفسي لا سامح الله التسويف والمماطلة الذين منعاني من الرد على الرسالة الأخيرة لصديقي /**سالم**/.

(٧)

بقايا ذكريات

حدث ما كان في الحسبان أن يغيب /**يحيى**/ بل ويتكرر غيابه، أما أن يغيب دون عودة، فهذا الأمر لم يكن في الحسبان على الأقل فيما يعتمل داخل الإطار الفكري للزوجة الحبيبة **رقية** التي عاشت فترة حيرة كانت خلالها تتقلب على جمر الانتظار ولن تتحلى بالصبر كما كان يتعشم فيها **يحيى**، بل كانت تحمل الصبر نفسه على كاهلها، وكانت كلما اشتدت عليها وطأة هذا الصبر تذكرت تلك الليلة المقمرة المضيئة التي ظلت محفورة في

وجدانها، وعلى الرغم من ذلك الألم والحزن الذي سببه غياب /**يحيى**/ إلا أن ابتسامتها الصافية المعجونة بالاحتقان النفسي الداخلي كانت تحافظ على توازنها في ظل المتابعات الحثيثة والخجولة في آن واحد من قِبَل بعض الأهل والمعارف للبحث عن مصير /**يحيى**/ والمكان الذي يمكن أن يكون موجوداً ومحتجزاً فيه.. لقد كانت تلك المتابعات خجولة في ظل عهد ثوري كانت القبضة الحديدية تمسك بزمام الأمور دون عطف أو شفقة أو رحمة وكل ذلك في سبيل الوصول إلى الأهداف السامية للثورة والقضاء على كل من تسول له نفسه العبث بهذه الأهداف. ويبدو أن /**يحيى**/ كان من أولئك المحسوبين على أنهم يريدون العبث بهذه الأهداف كما يرى بعض الرفاق، وقد ذهب ضحية لهذه الرؤية السياسية القاصرة العديد من الرجال الصالحين المؤمنين بالأهداف السامية

للثورة والراغبين في التغيير الإنساني الإيجابي، لعل منهم هذا الرجل الشهم الأصيل.

وبعد فترة انتظار طالت أصبح بصيص الأمل يتلاشى في العودة المأمولة **ليحيى** عندها حملت **رقيَّة** بقايا ذكرياتها، فتلقفتها أياد حانية من أهلها لترحل بها إلى أحد المهاجر القريبة، لتعيش مرحلة أخرى من مراحل حياتها كان الصمت الجميل الممزوج بالابتسام الأصيل عنواناً لها.. وبعد مرور خمسة عشر عاماً من عمر الزمن يتم طلاقها من **يحيى** عبر القاضي الشرعي لتتزوج أحد أقاربها هناك وتعيش مرحلة أخرى من مراحل حياتها لا ندري ماذا كان عنوانها؟

النهاية

المؤلف في سطور

الاسم: خالد أحمد عوض القحوم.

مكان وتاريخ الميلاد: مدينة الشحر، محافظة حضرموت، ١٩٦٣م.

المؤهل العلمي: بكالوريوس إدارة أعمال، ١٩٨٨م.

الصفة: كاتب /صحافي/ أديب.

المهام الإدارية:

- سكرتيراً للتحرير ورئيساً للقسم الرياضي بصحيفة شبام، سبتمبر١٩٩٨م.
- مديراً لتحرير صحيفة شبام، أبريل ١٩٩٩م.
- رئيساً لتحرير مجلة شبام الرياضي، مايو ٢٠٠٤م.
- رئيساً لتحرير صحيفة شبام، أبريل ٢٠١٢م.

- مـــديراً عامـــاً لمكتـــب وزارة الثقافـــة بمحافظـــة حضرموت، نوفمبر ٢٠١٨م.
- نائباً لرئيس مجلس إدارة مؤسسة باكثير للصحافة والطباعة والنشر، فبراير ٢٠٢٠م.
- مـــديراً عامـــاً لمكتـــب وزارة الإعـــلام بمحافظـــة حضرموت، أغسطس ٢٠٢٠م.
- مستشـــاراً لمحـــافظ محافظـــة حضـــرموت لشـــؤون الإعلام والنشر، نوفمبر ٢٠٢٣م.

نشاطات:

- معدّاً ومقدِّماً إذاعيـاً وتلفزيونيّـاً لأكثـر مـن ثلاثـين برنامجـاً فـي المجـالات الثقافيَّـة والفنيَّـة والرياضـيَّة والمنوعات.
- مؤلف دراما مسرحية وإذاعية.

- ثلاثة أعمال إذاعية "غيوم ناعمة" و"دموع الأيام" لإذاعة المكلا؛ و"جواهر على الطريق" لإذاعة سيئون، ناهيك عن التمثيليات القصيرة الأخرى..

وأيضاً له عشرون عملاً مسرحيّاً..

- صدرت المجموعة المسرحية الأولى باسم: **"نكهة الشهامة"** أبريل ٢٠١٥م. وهي تضم ثلاث مسرحيات "رجال وأوراق" و"الديك أولاً" و"إغراء السنابل".. وحازت الأخيرة على جائزة أحسن نص في مهرجان عدن الأول ديسمبر ٢٠١٨م.

إبداعات في الانتظار:

مجموعات مسرحيَّة..

- "نكهة الوفاء" و"نكهة الأصالة"

سرد.. مجموعات قصصيَّة:

- "هموم عتوم".
- "أحلام تشبه الثلج".
- "ظلال دافئة".

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
الإهداء	٤
مقدِّمة .. .. الأستاذ الرِّوائي صالح باعامر	٥
تمهيد	٧
دوران القمر	٩
عناق الأوهام	٢١
الأنيق المجنون	٣٥
الفنان المهاجر	٥١
قُبلة على الرأس	٥٩
الأحلام لا تكون دائماً وردية	٧٩

بقايا ذكريات	٨٧
المؤلف في سطور	٩١
فهرس المحتويات	٩٥